

من السر في آية الحج - بقلم السيد عادل العلوي



من السر في آية الحج - بقلم السيد عادل العلوي

قال اللّٰهُ ﷻ تعالى في محكم كتابه ومبرم خطابه: ﷻ وَاللّٰهُ ﷻ عَلَّيْ النَّاسِ حِجُّ ﷻ الْيَدَيْتِ ﷻ مَنْ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ﷻ وَمَنْ كَفَرَ ﷻ فَإِنَّ ﷻ غَنِي ﷻ عَنِ الْعَالَمِينَ ﷻ. بيان ذلك: (للّٰهُ ﷻ): يدلّ ﷻ على الوجوب والإخلاص وحصص العبادة إيّاه.

(على الناس): يدلّ ﷻ على أنّ الحجّ ﷻ كان من قديم الزمان من لدن آدم وإلى يوم القيامة. عن الإمام الصادق: إن الحجّ ﷻ لعامّة الناس، فلا يختصّ بزمان ولا مكان ولا أقوام ولا طوائف ولا أمم ولا شعوب.

(حجّ البيت): الحجّ ﷻ لغةً: - بفتح الحاء المهملة - من حجّ ﷻ يحجّ ﷻ حجًّا ﷻ فهو مصدر يدلّ ﷻ على مجرد الحدث من دون أن يقترب بأحد الأزمنة الثلاثة - الماضي والحاضر والمستقبل - وأنّه بمعنى القصد المتكرّر. وفي المصطلح: عبارة عن مناسك خاصّة في أيّام معلومات ومعدودات. وأمّا الحجّ ﷻ - بكسر الحاء المهملة - فهو إسم مصدر، ويدلّ ﷻ على ما يحصل من الحجّ ﷻ من الآثار المعنويّة والروحيّة، فالمصدر يدلّ ﷻ على أصل الفعل، وإسمه يدلّ ﷻ على ما يحصل من الفعل من إسقاط التكليف الشرعي والقرب من اللّٰهُ ﷻ سبحانه. فالحجّ ﷻ المطلوب عند اللّٰهُ ﷻ سبحانه ليس مجرد أصل الفعل، بل ما يحصل من فعل الحجّ ﷻ

من الصيانة المعنوية والآثار الروحية والمقامات الرفيعة التي تجمعها كلمة (التقوى) كما يجري ذلك في الفرق بين الصوم والقيام.

فالذي كُتِبَ على المؤمنين كما كُتِبَ على الذين من قبلهم هو الصيام من قبلهم هو الصيام، وليس مجرد الصوم، لأنَّه ربُّ صائم وليس له من صومه إلاَّ الجوع والعطش، فالمقصود من الصيام (لعلَّكم تتقون) وكذلك الحجَّ ﴿وَتَزَوَّجُوا فَاِنَّ خَيْرَ الْبَرِّ الَّذِي تَقْوَىٰ﴾ وإلاَّ ورد في أحاديثنا الشريفة: «ما أكثر الضحج وأقلَّ الحجج» ﴿وَقَلَّيْلٌ مِّنْ عِبَادِي الشَّاكِرِينَ﴾ فإنَّ أكثرهم كالأنعام بل أضلَّ سبيلاً. ثمَّ المراد من (البيت) هو البيت العتيق الذي وضعه اللّٰه ﴿لِلنَّاسِ مِنْ الْيَوْمِ الْأَوَّلِ﴾، فكان عتيقاً، كما عتق من طوفان نوح، كما أنَّه الثمين كالتراث العتيق، وقد ورد ذكره في القرآن الكريم في ستَّة عشر موضعاً.

(من استطاع إليه سبيلاً) أعم من الاستطاعة المالية والبدنية والسريية، أي الطريق، كما ذكرها الفقهاء في رسائلهم العملية.

(ومن كفر فإنَّ اللّٰه غنيٌّ عن العالمين) فمن يترك الحجَّ وهو مستطيع من دون عذر، فقد كفر بنعمة اللّٰه، وهذا من الكفر العملي، ويأتيه ملك عند نزع روحه ويقول له: مُتَّ يهودياً أو نصاريّاً أو مجوسياً. فلا يموت على دين الإسلام، المحمّدي الأصيل – والعياذ باللّٰه. ثمَّ لا يضره من كفر به في عقيدته أو سلوكه، إنَّما يضرُّ نفسه، فإنَّ اللّٰه غنيٌّ عن الحاجِّ وحجِّه، بل غني عن العالمين، إنَّه غنيٌّ بالذات، فإنَّه الكمال المطلق ومطلق الكمال في الذات والصفات والأفعال: ﴿أَنْتُمْ الْفُقَرَاءُ﴾ إِرْلَى اللّٰهَ وَاللّٰهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْخَمِيدُ فلا يضرُّه من ضلَّ عن سبيله، وإرتكب معاصيه، وكفر بنعمه وآلائه، إنَّما هو الخاسر خسراناً مبيناً.

ثمَّ ممَّا يدلُّ على الوجوب والتأكيد على الحجَّ لمن كان مستطيعاً الوجوه التالية:

(1) (لِلّٰهِ عَلَى النَّاسِ) جملة خبرية، وإنَّها أقوى من الجملة الإنشائية للدلالة على الوجوب وتأسيس حكم أو إمضائه. (2) إنَّها جملة إسمية وهي أدل على الوجوب من الفعلية لدلالاتها على الثبوت والإستمرار. (3) لام التأكيد في قوله (﴿﴾) وللتأكيد الذي إقترن مع ا، مقدمة على المبتدأ وهو الحجَّ، فيدلُّ على الحصر.

(4) ذكر (على الناس) بعد قوله: (﴿﴾) يفيد التأكيد فيدلُّ على الوجوب. (5) ذكر المكلّفون مرتين: (على الناس... من إستطاع إليه) بدلاً من أن يقال: للّٰه على المستطيع، ففي الآية بدّل البعض عن الكلِّ، ويفيد التأكيد والوجوب.

(6) عبّر عمَّن ترك الحجَّ بالكفر – وهو من الكفر العملي. عن الإمام الصادق: «من مات ولم يحجَّ حجّة الإسلام لمن يمنعه من ذلك حاجة تجحف به أو مرض لا يطيق فيه الحجَّ، أو سلطان يمنعه، فليمت يهودياً أو نصرانياً». وهذا يدلُّ على الوجوب الفوري، لعدم علم الإنسان بساعة موته، فلا يؤخّر الحجَّ ويسوّفه – أي يقول سوف أذهب – لمن كان مستطيعاً.

(7) لإظهار عدم الإعتناء بمن ترك الحجّ قال سبحانه: (فإنّ اللّٰه غنيّ عن العالمين) فإنّه غنيّ ليس لمن ترك الحجّ وحسب بل لكلّ العالمين. ثمّ في الحجّ أسرار وحكم يجمعها الإيمان الكامل بالمبدء والمعاد، باللّٰه سبحانه واليوم الآخر، وما بينهما من الإيمان بالرسول والكتب النازلة عليهم، وبالإمامة من بعد الرسل والعمل الصالح.